

شخصيات وأفكار

عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ الثورات المصرية

حبس العالم أنفاسه طيلة أيام الثورة (الثمانية عشرة)، مشدوهاً مذهولاً لا يكاد يصدق سماعه وبصره من توالي الأنباء من ميدان التحرير وكافة المدن المصرية، هذه الثورة النقية التي تدفع الأذى ولا ترفع يديها بانتقام أو عنف، لا غرو فيها؛ فمصر صانعة التاريخ.

واستقراء صفحات التاريخ والعودة إلى شيخنا (الجبرتي) يؤكد ذلك، حيث يحكي لنا ما حدث في فصول تاريخنا البعيد، وكأن لسان حاله يقول: ما حدث لم يكن غريباً قط.

نسبه وحياته ونشأته العلمية

العلامة الجبرتي.. هو عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم بن الشيخ حسن بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الجبرتي الحنفي، نسبة إلى جبرت - إحدى مدن الزيلع الإسلامي في بلاد الحبشة.

ولد (الجبرتي) في حي الصنادقية، تلك العطفة التاريخية من أحياء القاهرة المعزية ذات المجد المؤثل، عام (١١٦٨هـ - ١٧٥٤م / ١٢٤٠هـ - ١٨٢٥م) لأسرة على حظ وافر من الثراء، لكن الأهم من ذلك هو اشتهاؤها بالعلم، ونستطيع أن نقف طويلاً عند فقرات أثبتتها الجبرتي في ترجمة أبيه: "درس أشكال التأسيس في الهندسة وتحرير إقليدس، والمتوسطات والمبادئ والغايات والأكر وعلم الأرتماطقي، والجغرافيا وعلم المساحة".

"وكانت مكتبته تضم كتباً بها من التشاويه والتصاوير البديعة الصنعة الغريبة الشكل، وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاس، وكذلك غيرها من الآلات الارتفاعية والميالات وحلق الأرصاد والأسطرلابات والأرباع والعدد



إعداد:
أحمد حسن علي



الهندسية وأدوات غالب الصنائع". وخلف والد الجبرتي الكثير من المؤلفات والتراث العلمي، وعلى مسيرة الآباء والأجداد، وهدى ذلك التراث العلمي والثقافي كانت حياة شيخنا (الجبرتي)، الذي أرسله والده لأحد الكتاتيب ليحفظ القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة، ثم انتقل إلى المدرسة السنانية ليستزيد من المعارف الدينية، والتحق بعدها برواق الشوام ليتفقه بأسس المذهب الحنفي على يد الشيخ عبد الرحمن العريشي، وقرأ عليه نور الإيضاح، ومتن الكنز، ومقدار النصف من الدر، وشرح الفرائض، وأخذ كذلك عن الشيخ محمد عبد ربه العريزي علوم التفسير، وقد أجازه بمرويته ومسموعاته، وتحلق حول الشيخ الدمهوري الماهر بفقهاء المذاهب الأربعة، وتعلم علمي الحساب والجبر، وقراءات القرآن الكريم على يد الشيخ محمد بن موسى الشافعي، وانخرط في أجواء التصوف بخلوة الشيخ محمد الكردي الزاهد.

ولازم دروس الشيخ أحمد بن داود العروس الشافعي في المغني لابن هشام، وشرح جمع الجوامع للجلال المحلي والمطول وعصام علي السمرقندية، وشرح رسالة الوضع، وشرح الورقات، وغير ذلك، وتلقى الرياضيات والفلك على يد والده، مع طلاب العلم في منزلهم.

وكانت ملازمته لصاحب تاجر العروس العلامة (مرتضى الزبيدي) مرحلة فاصلة في حياته، فقد ذكر الجبرتي طرفاً من تلك العلاقة: "إني كنت مشاهداً وحاضراً في غالب هذه المجالس والدروس، ومجالس أخرى خاصة بمنزله وبسكنه القديم بخان الصاغة، فكان نشغل غالب الأوقات بسرد الأجزاء الحديدية وغيرها"، وبعد استحصاء هذا الكم من الثقافة المتكاملة واستيعابها، انتقل (الجبرتي) إلى منصة الدرس والإقراء، برواق (الجبرتي) في ساحة منزله، حتى منتصف العقد الرابع من حياته، وتصدر المشهد الثقافي المصري مع صاحبيه الشيخ

حسن العطار، والمؤرخ إسماعيل الخشاب. يبدو واضحاً مما تقدم أن شيخنا (الجبرتي) قد نشأ وترعرع في بيئة ثقافية وعلمية مزدهرة من بيت والده العالم الموسوعي إلى حلقات الدرس والبحث في أروقة الأزهر الشريف والعلم الحي من التعلم على يد العلماء المتأثرين في كل علم وفن، وخزانات الكتب العامرة بأمهات المخطوطات والتأليف، على عكس ما تردده بعض الأعلام المغزوة بمرض (الأفرنجي) من أن الفترة السابقة قبل الغزو الفرنسي (١٧٩٨ - ١٨٠١م) قد شابها الجمود والتأخر، فبمطالعة العلماء الذين ترجم لهم الجبرتي في تأريخه، وأكادس المصنفات التي ذكرها، يتأكد تهافت هذا الاتهام الجائر!

نشاطه المعرفي ونتاجه الفكري

إلى جانب شهرته التي بلغت الآفاق في علم التاريخ، كان الجبرتي من المشتغلين بعلم الفلك، وقد أخذ عن والده الشيخ (حسن الجبرتي)، وقد لخص كتاب (نزهة النفس بتقويم الشمس) لرمضان الخوانكي في حوالي النصف، وكذلك حفل كتابه (عجائب الآثار) بالكثير من الإشارات والملاحظات التي تدل على تمكنه في هذا العلم، وفي أحداث شعبان ١٢٢٦هـ/ أغسطس ١٨١١م يتحدث عن ظهور نجم مذنب، ويحدد موقعه الفلكي واتجاهه، فيقول: "وفي هذا الشهر ظهر نجم له ذنب في جهة المغرب وذنبه صاعد إلى جهة المشرق، وله شعاع مستطيل في مقدار الرمح، واستمر يظهر كل ليلة والناس ينظرون إليه، واستمر ظهوره قريباً من ثلاثة أشهر، واضمحل بعض جرمه ومشى إلى ناحية الجنوب، وقرب من النسر الطائر".

وتنسب (للجبرتي) مختصر تذكرة داود، لداود الأنطاكي، وتوجد نسختان خطيتان من هذا المختصر بالمكتبة الأزهرية، ودار الكتب المصرية، كما أن إشارات الطبعة التي أوردها كذلك في



نشأ الجبرتي وترعرع في بيئة ثقافية وعلمية مزدهرة من بيت والده (الموسوعي) إلى حلقات الدرس والبحث في الأزهر، وتلقى العلم الحّي على يد العلماء في كل علم وفن



إطار زمني يمتد من النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى الربع الأول من القرن التاسع عشر، حيث شملت العقود الخمسة الأخيرة من حكم المماليك، فقد عايش سبعة وعشرين حاكماً من حكامهم، وسجل أخبارهم وإداراتهم، يقول الجبرتي: "نقتصر على ذكر المشهورين مما يحسن إيرادهم من التبيين؛ إذ الأمر أعظم مما يحيط به؛ إذ التفصيل في أحوالهم متعذر، ولم اخترع شيئاً من تلقاء نفسي، والله مطلع على أمري وحديسي"، وما أعقبها من الغزوة الفرنسية، وعودة العثمانيين، وخلع الوالي العثماني خورشيد باشا، وتصيب محمد علي حاكماً، والعشرون سنة الأولى من حكمه، وجمع الكتاب ما بين كتب (التراجم)، ففي نهاية كل عام يترجم لكل من توفي فيها من الأمراء والعلماء والأدباء والشعراء والتجار البارزين في المجتمع بوجه عام، والتأريخ للأحداث والتعليق عليها بموضوعية وأمانة نادرة.

التاريخ، المصطلح والأهمية عند الجبرتي

شكل الجبرتي انعطافة حادة في المدرسة التاريخية المصرية، بعد تخليصها من شوائب المرحلة العثمانية المفتقرة للرؤية والمنهج في تحديد حركة التاريخ أو الوقوف عند العوامل المؤثرة فيه، وقد سجل الجبرتي معاناته الأليمة عندما عزم على جمع ما سوده، وأراد الوصل بينه

(عجائب الآثار)، جديرة بالبحث والدراسة، ففي حديثه عن أحداث رجب ١١٩٣هـ، يشير إلى مرض سمي وقتها بأبي الركب، فشا في الناس قاطبة حتى الأطفال، تكلم عن أغراضه، قائلاً: "وهو عبارة عن حمى ومقدار شدته ثلاثة أيام وقد يزيد على ذلك، وينقبض بحسب اختلاف الأمزجة، ويحدث وجعاً في المفاصل والركب والأطراف، ويوقف حركة الأصابع، ويصاحبه بعض الورم، ويبقى أثره أكثر من شهر، ويأتي الشخص على غفلة فيسخن البدن ويضرب على الإنسان دماغه وركبه، ويذهب بالعرق والحمام".

وللجبرتي ثلاثة مؤلفات تاريخية، هي:

١ - تاريخ مدة الفرنسيين بمصر من سنة ١٢١٣ - ١٢١٦هـ:

ويتضح من العنوان أنه قد دون تاريخ مدة الفرنسيين في المدة ما بين (١٢١٣ - ١٢١٦هـ/ ١٧٩٨ - ١٨٠١م)، إلا أن هذه المخطوطة قد فقدت أجزاء منها، وأصبح الجزء المتبقي يؤرخ لأحداث الغزوة الفرنسية لمدة سبعة أشهر فقط، وهي من أوائل المحرم ١٠ منه (١٢١٢هـ) حتى نهاية رجب من السنة نفسها، وقد اعتمد الجبرتي فيما بعد على هذه المخطوطة في إخراج كتابيه (مظهر التقديس)، و(عجائب الآثار).

٢ - مظهر التقديس بزوال (بذهاب) دولة الفرنسيين:

وهو يؤرخ للغزوة الفرنسية على مصر والسنوات الثلاث التي قضتها بها، وقد ألفه بعد خروج الغزوة في عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م، بالمشاركة مع صديقه الشيخ حسن العطار، الذي أمدّه بمقطوعات من الشعر، أما غالبية الكتاب ومتمته الأساسي فمن تأليف الجبرتي.

٣ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار:

وهو يتناول تاريخ مصر من عام (١١٠٦ - ١٢٣٦هـ/ ١٦٩٤ - ١٨٢١م)، والأحداث الجسام التي تعرضت لها مصر وعاصرها الجبرتي، في

من الأمم المذكورة السالفين، ويستجلب خيار أفعالهم، ويجتنب سوء أقوالهم، ويزهد في الفاني، ويجتهد في طلب الباقي".

ثم أتبعه بمقدمة ضافية تحدث فيها عن تقسيم طبقات الناس، ثم بسط النصيحة للحكام بضرورة مراعاة العدل وحسن السياسة، وقال: "أصناف العدل من الخلائق خمسة:

١ - الأنبياء.

٢ - العلماء.

٣ - الملوك وولاة الأمور إذا عدلوا.

٤ - أوساط الناس.

٥ - القائمون بسياسة نفوسهم.

وفي الجزء الثاني يقول الجبرتي: (صلاح الملوك تابع لصلاح العلماء، وفساد اللازم بفساد الملزوم، فما بالك بفقده، والرحى لا تدور بدون قطبها).

سفر الثورات المصرية

لا زالت ظلال ثورة ٢٥ يناير تكسو الأجواء، بغلالة ثورية باهرة، وصدى نداءات التحرير لم يبرح الأسماع بعد، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال لا بد من الإجابة عنه، ولو اقتضى ذلك الرجوع إلى الوراء زمنياً من تتبعا لحوادث التاريخ: هل كانت ثورة ٢٥ يناير جملة اعتراضية في التاريخ المصري الحزين؟ أو بعبارة أخرى: هل لا زالت فرضيات بعض الكتاب والمؤرخين على جانب من الصواب، فيما ذكروه عن الشعب المصري، بأن: (لم ينهض الفلاحون المصريون خلال قرون عديدة بالثورة إلا مرتين قبل ثورة ١٩، وفي كلتا المرتين كان هناك احتلال أجنبي أو تهديد بحال حدوثه)، أو أنهم (يقصدون حكماءهم تقديساً خرافياً، بل لأن الثورة ليست في طبائعهم)، إلا أن كافة الأوهام التي نسجت في عقول الآخرين داستها أقدام الثائرين في أيام الثورة المباركة، ولإنصاف هذا الشعب الذي ظلم كثيراً على يد أبناؤه العاقين وأغرابه المتشككين في قدراته لأسباب خاصة، نقلب في صفحات كتاب مؤرخنا

وبين المادة التاريخية التي تسبقه فلم يجد إلا: "كراريس سودها بعض العامة من الأخبار ركيكة التركيب، مختلفة التهذيب والترتيب، وقد اعترها النقص من مواضع في خلال بعض الوقائع".

وبعد أن عدّد أسماء كتب التاريخ التي كانت في القاهرة، وتم السطو عليها في الغزوة الفرنسية، وبقايا الفتن والحروب، قال: "وهذه أسماء من غير مسميات، فإننا لم نر من ذلك كله إلا بعض أجزاء مدشته بقيت في خزائن بعض الأوقاف بالمدارس، مما تداولته أيدي الصحّافين، وباعها القومة والمباشرون، ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان، ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب، وأخذ الفرنسيين ما وجدوه إلى بلادهم".

ثم قال أيضاً، وهو يذكر قصة شروط الصلح للجلاء عن القاهرة، ومن الشروط: أن الفرنسيين: "يستصحبون معهم ما يحتاجون إليه من أوراقهم وكتبهم، ولو التي شروها من مصر"، أو (ولو التي سرقوها من مصر)، كما قال الأستاذ محمود شاكر.

وفي وسط هذا الدمار الشامل الذي ألم بالقاهرة، جراء الفتن المهلكة التي خلفتها الغزوة الفرنسية، والسطو على كتب المساجد والمدارس وخزانات العلماء والأمراء الممالك، كتب (الجبرتي) كتابه، وبدأه بتمهيد تحدث فيه عن التاريخ وفضله وفائدته، وقال: "التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف، وبلدانهم، ورسومهم وعاداتهم، وصنائعهم وأنسابهم، ووفياتهم".

وموضوعه: "أحوال الأشخاص الماضية من: الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والحكماء، والشعراء، والملوك، والسلطين وغيرهم". والغرض منه: "الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي، وكيف كانت".

وفائدته: "العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن؛ ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين



حياة الجبرتي وتميز وتنوع العلماء الذين أخذ عنهم وترجم لهم في تاريخه تفند الدعاوي القائلة بأن مصر شهدت حالة من الجمود والتخلف قبل الغزو الفرنسي (١٧٩٨ - ١٨٠١ م)



كبيرة من المتعممين، وذهبوا إليه، وخاطبه الشيخ الصعيدي، وقال له: ما هذه الأفعال وهذا التجارى (أي الجرأة)، فقال له: أفعالكم يا مشايخ أقبح! فقال له: هذا قول في مذهب المالكية معمول به، ونحن أعلم بالأحكام الشرعية، فقام (الأمير) على أقدامه وصرخ وقال له: والله أكسر رأسك! فصرخ عليه الشيخ الصعيدي وسبه وقال له: لعنك الله، ولعن اليسرجي الذي جاء بك، ومن باعك ومن اشتراك، ومن جعلك أميراً، فتوسط بينهم الحاضرون من الأمراء يسكنون حديثه وحدتهم، وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس فأخذوه وخرجوا وهم يسبون (أي الأمير) وهو يسمعهم.

واتفق في ذلك الوقت اختلفت المغاربة، وحكمت لصالح الشيخ (عباس) ضد الخصم المتجنيء إلى الأمير يوسف، الذي تملكه الغضب، ومارس الإجراءات السابقة، وعندما وصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع: اجتمعوا في صبحها...).

ولم يكتف المشايخ بذلك وكفى، بل قضوا بأن يتكفل الأمراء بقضاء أشغال المشايخ وقضاء حوائجهم، وقبول فتواهم، وصرف جماكهم وجراياتهم، وذلك بضمان الشيخ السادات له، إضافة إلى "ومن جملة ما اشترطوه في الصلح عدم مرور الأغا والوالي والمحتسب من حارة الأزهر وغير ذلك شروط".

المبقرى المصري الأصل (الجبرتي) (عجائب الآثار)، لمدارسة الخبرة التاريخية لثورات الشعب المصري عبر عصور المماليك والأتراك، ومقاومة الغزوة الفرنسية، والسنوات الأولى لحكم محمد علي.

ولنقطع الشك باليقين، ونصفع الحقائق بالأوهام لتتبدد وتتطاير، لهذا فنحن نبدأ سفر (الثورات المصرية) بالهبات الشعبية في عصر المماليك والأتراك، والتي انتهت بعقد حجة الحقوق عام ١٧٩٥م، فالمجتمع المصري آنذاك كان ينقسم إلى قسمين متميزين: (الحكام)، ويمثلهم (المماليك - الوالي)، ولهم السلطة المطلقة مقابل توفير الأمن الداخلي والخارجي، و(المحكومين) كافة طوائف الشعب، وحلقة الوصل وقناة الاتصال بين الحكام والمحكومين يمثلها (المشايخ وعلماء الدين)، كانت عموم الأمة تعرف قيادتها الشرعية، وهي العلماء، والأزهر مركز للمقاومة ضد تعدي الحكام.

فإذا تجاوز الحكام الحدود المرسومة لحركتهم داخل المجتمع المصري، كان ذلك إيذاناً بحدوث الهبات أو الانتفاضة حسب حجم الاختراق والتعدي، والذي لا يخرج عن التهجيم على أحد المشايخ، أو إهانة الشرع وتجاوزه، أو إيذاء العامة في أرزاقهم وحرياتهم، ولم تجرِ المفاوضات في حل المشكلات، يقود المشايخ الحركة عبر طرائق تتفاوت ما بين منع الأذان، أو الأذان في غير أوقات الصلاة، وإغلاق أبواب الأزهر في وجه المصلين وطلبة العلم، وعندئذ تتطور إلى قتال حقيقي!

فالشيوخ عبد الباقي العفيفي في حكم شرعي لم يجب أحد الأمراء (فأرسل إليه أعواناً أهانوه وقبضوا عليه ووضعوا الحديد في رقبته ورجليه وأحضره في صورة منكرة وحبسه في حائل أرباب الجرائم من الفلاحين)، وإزاء هذا التدخل الجائر في أحكام الشرع وإهانة العالم بهذه الصورة التي لا تليق، "ركب الشيخ علي الصعيدي، والعدوي، والشيخ الجداوي، وجماعة

أبواب الجامع، وأمروا الناس بغلق الأسواق (والحوانيت)، ثم ركبوا في ثاني يوم ومعهم خلق كثير من العامة، وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات، فأرسل لهم المالك أميراً يسألهم عن مطالبهم، فقال المشايخ: "نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدئتموها وأحدثتموها"، فقال الأمير: "لا يمكن الإجابة عن هذا كله، فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والتنفقات"، فقال لهم: حتى أبلغ، وانصرف ولم يعد لهم بجواب، وانفض المجلس، وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر، وفي اليوم الثالث اجتمع الأمراء وأرسلوا إلى المشايخ، وحضر الشيخ الشرقاوي والسيد النقيب (عمر مكرم)، والشيخ السادات، والشيخ البكري، والشيخ محمد الأمير، ودار الكلام بينهم وطال، وانحط الأمر على أنهم: "تابوا ورجعوا بما شرطه العلماء عليهم، وانعقد الصلح بينهم على أن يرفعوا عن الناس المظالم المحدثه والكشوفيات والتقارير والمكوس، وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس، ويسيروا في الناس سيرة حسنة، وكان القاضي حاضراً بالمجلس، فكتب حجة عليهم بذلك، فوقع الأمراء عليها".

وانجلت الفتنة، ورجع المشايخ وحولهم حشد كبير من العامة ينادون: "حسب ما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية".

ويعقب الجبرتي على ذلك بقوله: "وفرّح الناس وظنوا صحته، وفتحت الأسواق، وسكن الحال على ذلك نحو شهر، ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيادة".

وفي العام الذي يليه، سنة ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م، بدأها بقوله: "لم يقع فيها من الحوادث التي يعتنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم"، ثم جمع السنتين ١٢١١، ١٢١٢هـ / ١٧٩٦، ١٧٩٧م معاً، وقال أيضاً: "لم يقع فيهما من الحوادث التي تقيّد في بطون الطروس سوى ما تقدمت الإشارة إليه".

ولما اشتط أمير الحاج في فرض الضرائب أثناء مولد السيد البدوي في طنطا، وتوسطت العامة لدى الشيخ الدردير، والذي توجه إلى خيمة كتحدا الكاشف واستدعاه إليه، "فحضر إليه والشيخ راكب على بغلته؛ فكلمه ووبخه، وقال له: أنتم ما تخافون من الله"، وفي أثناء توبيخ الشيخ للكاشف هجم عليه رجل من العامة وضربه بنبوت، وحدث هرج، (وهاجت الناس على بعضهم، ووقع النهب في الخيم وفي البلد).

ولم تكن مقاومة المشايخ والعامة موجهة إلى عسف وجور الأمراء المحليين فقط، ففي سنة (١١٤٨هـ - ١٧٣٥م) أصدر السلطان العثماني مراسيم وأوامر، منها: "إبطال مرتبات أولاد وعيال... وأن المال يقبض إلى الديوان ويصرف من الديوان، وأن الدفاتر تبقى بالديوان ولا تنزل بها الأفندية إلى بيوتهم، فما قرئ ذلك قال القاضي (التركي): أمر السلطان لا يخالف ويجب إطاعته"، فماذا كان موقف المشايخ في مواجهة هذا التهديد؟ قال الشيخ سليمان المنصوري: "يا شيخ الإسلام، هذه المرتبات فعل نائب السلطان وفعل النائب كفعل السلطان، وهذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين وتداولته الناس، ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة، ولا يجوز إبطال ذلك، وأن أمر ولي الأمر بإبطاله لا يسلم له ويخالف أمره؛ لأن ذلك مخالف للشرع، ولا يسلم للإمام في فعل ما يخالف الشرع ولا لثائبه أيضاً، فسكت القاضي، فقال الباشا: هذا يحتاج إلى المراجعة".

حجة الحقوق ١٧٩٤م

وإلى أقوى الانتفاضات الشعبية التي وقعت في سنة (١٢٠٩هـ - ١٧٩٤م) قبيل الفزوة الفرنسية بأربع سنوات، حين جاء أهل قرية بمديرية الشرقية يشكون الأمير محمد بك الألفي وأتباعه الذين ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه، واستغاثوا بالشيخ (الشرقاوي)، الذي حضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا



أصناف العدل من الخلائق خمسة عند

الجبرتي: الأنبياء، والعلماء، وولاة الأمور -

إذا عدلوا - وأوساط الناس، والقائمون

بسياسة أنفسهم



وعموم الخراب، وتواتر الأسباب «ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ» (الأنعام: ١٣١).

ونزل الفرنسيون إلى شواطئ الإسكندرية (فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد)، ولم يكن بالمدينة قوة عثمانية، ولا أكثر من عشرين مملوكًا، وقد قاوم المصريون وسع طاقتهم، أمام جيش يفوق عدد سكان المدينة أربعة أضعاف، ورغم ذلك قاتلت المدينة، حتى أعمل فيها الغزاة قتلاً بعد السيف كما سجل قادة الجيش ذلك في يومياتهم: (وذبح الرجال والنساء، الكبار والصغار، حتى الأطفال، عن بكرة أبيهم).

وانشغل الجبرتي عن متابعة ما يحدث، بتتبع المكاتب بين الإسكندرية والقاهرة، طالبة العون والنجدة، ولكن المماليك والعثمانيين لم يحسنوا تقدير الموقف العسكري، واستهان الأمراء بالغزو، وزعموا: (إذا جاء جميع الإفرنج، لا يقفون في مقابلتهم، وأنهم يدوسونهم بخيولهم)، وواصل الفرنسيون زحفهم إلى القاهرة من غير ممانع، وسبقهم إلى القاهرة منشورهم الذي ملؤوه كذبًا واختلافًا؛ بغية خداع الشعب وتضليله وتحذيره.

ودخلت قوات الغازي نابليون القاهرة، بعدما دارت الدائرة على المماليك في إمبابية، وعجزوا عن أداء مهمتهم، وفروا هاربين، بقيت القاهرة والأقاليم دون مدافع، وحدث أول فراغ أمني في

الغزوة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م)

ودهمت شيخنا الجبرتي سرعة الأحداث وما تلاها من البلاء الذي حط على مصر كلها بنزول الفرنسيين (١٧٩٨ - ١٨٠١م - ١٢١٣ هـ)، الذين كانوا يتابعون ما يجري في مصر عبر جهاز (الاستشراق) عين الغرب وأداته النافذة من خطوات (اليقظة) و(النهضة) التي بدأت في الاكتمال، وتتابع خطواتها بأقدام ثابتة من شل أيدي المماليك عن الجور والإفساد، وتمهدهم بالتوبة والصلاح وكتابة ذلك بحجة موثقة، على أيدي العلماء والمشايخ طليعة هذه اليقظة، ومظاهر النهضة العلمية والأدبية التي لا تخطئها الأعين، وأثارها كل من الشيخين (حسن الجبرتي) و(مرتضى الزبيدي) من مصنفات مجمدة وطلاب نشطاء في أروقة الأزهر، وكان هذا كفيلاً بإحداث المخاوف في نفوس الغرب، وهو حديث عهد بالنهضة، والنتائج التي تؤدي إليها هذه الخطوات، وكان لا بد من التحرك السريع، وتقدم (نابليون بونابرت) وفرسان الثورة الفرنسية لأداء هذه المهمة، وإجهاض هذه النهضة قبل أن يشتد عودها، وعندئذ سوف تكون العواقب وخيمة.

ورغبة فرنسا في احتلال مصر سبقت نابليون وتطلعات الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) ذاتها، وقد قام الملكيون الفرنسيون بدراسات واتصالات، وزرع جواسيس وأعوان، وقد استعان نابليون بكل هذه الأدوات لمهمته الاستعمارية.

ولخص شيخنا الجبرتي أهوال الغزوة الفرنسية، وتداعياتها على الأحداث في مصر، قائلاً: "وهي أولى سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير،

وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع، والأواني والقصاع، والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها).

ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصي عددهم إلا الله، وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم).

ورغم الضربة الوحشية التي أنزلها نابليون بالثوار، لم يَفُتْ ذلك في عضدهم، ودعوا لإعادة الكرة من جديد، وقد كان.

ثورة القاهرة الثانية

وعلى إثر نقض الإنجليز اتفاقية (العريش) التي نظمت جلاء الفرنسيين عن مصر، بعد هروب نابليون من مصر وتولي كليبر قيادة جيش الاحتلال، انقض كليبر على الجيش العثماني، في عين شمس، والذي سرعان ما تمزق في ساعات، وعاد كليبر ليجد القاهرة مشتعلة بالثورة وتحت قبضتهم.

وفي (١٤ من إبريل ١٨٠٠م) أمر كليبر بهجوم كبير شامل على المدينة، "والمسلمون أيضاً بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة، وزلزلوا في ذلك اليوم والليلة زلزالاً شديداً، وهاجت العامة، وصرخت النساء والصبيان، ونطوا من الحيطان والنييران تأخذ المتوسطين بين الفئتين من كل جهة)، وركز كليبر جهوده ضد حي بولاق الذي أبى التسليم بعد أن وعد بالعضو، (وفي كل ساعة تهجم العساكر الفرنسية على جهة من الجهات ويحاربون الذين بها ويملكون منهم بعض المتاريس فيصيحون على بعضهم بالمناداة ويتسامع الناس ويصرخون على بعضهم البعض، ويقولون: عليكم بالجهة الفلانية، الحقوا إخوانكم المسلمين،

العصر الحديث، سجلته كاميرا الجبرتي: "وانقطعت الطرق، وتعدى الناس بعضهم على بعض، لعدم التفاف الحكام واشتغالهم بما دهمهم".

"وأما بلاد الأرياف، فإنها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضاً، وينهب بعضهم بعضاً، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب وإخافة طريق... وغير ذلك من أنواع الفساد الذي لا يحصى".

عندئذ حمل العامة مسؤوليتهم، وبدأت صفحات المقاومة الشعبية المصرية ضد الغازي الأوروبي، الذعر والحرافيش والفوغاء في شوارع القاهرة، والفلاحون يشنون أول ثورة فلاحين في جنبات الوادي من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه، والنخبة الوطنية ممثلة في (الشيوخ والتجار والأعيان) لم يكونوا أقل بذلاً واستعداداً للتضحية، وخاب مسعى نابليون وقواده، فقد اعتقدوا أن الشعب المصري سينشغل بالقصاص من جلاديه الممالك فور هزيمتهم، ويرحب بمقدم قواتهم، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، بدأت المقاومة تستعيد قواها بعد زوال المفاجأة وآثار الضربة الأولى، فبعد ثلاثة أشهر من الاحتلال الفرنسي، بدأت فصول ثورة القاهرة الأولى، والتي سجلها الجبرتي، ويروي لنا ما وقع لأهل مصر من التترس ومحاربة الفرنسيين وإثارة الفتنة، ومواقف الثوار وجرائم قوات نابليون، وإهانتهم لحرمة الجامع الأزهر.

ثورة القاهرة الأولى ١ جمادى الأولى

١٢١٣هـ / ٢٠ / ١٠ / ١٧٩٨م:

ولتكتمل هزيمة الثوار المادية والمعنوية، أمر نابليون قواده باقتحام الجامع الأزهر بطريقة بربرية، ليحدث جرحاً غائراً في نفسية الجماهير، لا تشفى جراحه (ودخلوا الأزهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته،

أبناء البلد الذين يتوجسون من الفرحة، التي ما تلبث أن تنقلب غمًا، وهذا ما قاله الجبرتي عندما انقلب الجند العثمانيون العائدون، فقال: "وتمادى قبج العسكر بما لا تحيط به الأوراق والدفاتر، بحيث لا يخلو يوم من زعجات ورجفات وكرشات غالب الجهات، إما لأجل امرأة أو أمرد أو خطف شيء أو تنازع شر". ولقد أدت مسلكية الجند العثمانيين إلى انزعاج المصريين، إلا أنه حدث ما كان منتظرًا حدوثه.

عزل خورشيد باشا

ففي عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م، ثار المصريون ضد خورشيد باشا الذي أرهقهم بما فرضه عليهم من مغارم ومظالم، واستطاع المصريون في النهاية عزله وتولية محمد علي واليًا عليهم. ونعود إلى شيخنا ليصف لنا ذلك الحدث الهائل وتداعياته المستمرة إلى يومنا هذا: "فلما أصبح يوم الأحد (١١ من صفر ١٢٢٠هـ / ١١ من مايو ١٨٠٥م)، ركب المشايخ إلى بيت القاضي واجتمع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال، وصرخوا بقولهم: شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم"، وطلبوا من القاضي أن يرسل بإحضار المتكلمين في الدولة لمجلس الشرع.

"فلما أصبحوا يوم الاثنين، اجتمعوا ببيت القاضي، وركب الجميع وذهبوا إلى بيت محمد علي، وقالوا له: إنا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا، ولا بد من عزله من الولاية، فقال: ومن تريدونه يكون واليًا، قالوا له: لا نرضى إلا بك، وتكون واليًا علينا بشروطنا، لما نتوسمه فيك من الخير والعدالة"، وأحضروا له كركًا وعليه قططان، وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فألبساه له، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة".

وأرسلوا إلى أحمد باشا الخبر بذلك، فقال: إني موالي من طرف السلطان، فلا أعزل بأمر

فيرمحون إلى تلك الخطئة والمتاريس حتى يجلوهم عنها، وينتقلون إلى غيرها فيفعلون (كذلك).

وكان الشيخ الجبرتي مع المرابطين في ميدان التحرير، ينافحون عنه ضد غزوات البلاطجة والجمال والخيال التي أطلقها عليهم النظام البائد، (وكذلك المشايخ والفقهاء والسيد أحمد المحروقي، والسيد عمر النقيب، يمرون كل وقت ويأمرون الناس بالقتال ويحرضونهم على الجهاد).

(وقاتل أهل بولاق جهدهم، ورموا بأنفسهم في النيران حتى غلب الفرنسيين عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل، وبلوا بالنهب والسلب، وملكوا بولاق، وفعلوا بأهلها ما تشيب من هولته النواحي، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة والحارات).

فكانت مدة الحرب والحصر بما فيها من الثلاثة أيام الهدنة سبعة وثلاثين يومًا.

وبعد بكاء الجبرتي على أطلال القاهرة، والعبرات التي سالت،

هل للشعوب من سبيل لنيل حريتها إلا الدماء والخطوب والأهوال؟

سيطل الجواب برأسه قائلاً: لا بد من تحمل ما لا سبيل لتحمله؟

وبنهاية ثورة القاهرة الثانية المساوية، حسم مصير الحملة أو الغزوة الفرنسية، وتأكد للجميع أن رحيلها مسألة وقت ليس إلا، ووقعت الاتفاقية، ودحر الغزاة، وعاد العثمانيون والمماليك إلى الساحة مرة أخرى، وفرح الجبرتي، وفرح الشعب المصري، وصور مظاهر هذا الانتصار القومي قائلاً: "ففرح الناس كعادتهم بالقدامين، وظنوا فيهم الخير، وصاروا يلتقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدمهم، ورفعوا أصواتهم: نصر الله السلطان ونحو ذلك"، وكعادة

عمر مكرم فإن الذي وقع له بعض ما يستحقه، ومن أعان ظالماً سلط عليه، ولا يظلم ربك أحداً. وعلى الرغم من عدااء الجبرتي لمحمد علي، فإنه لم يتخل أبداً عن موضوعيته، فقد أشاد به عند قيامه بالإصلاحات في الري وخلافه، وأعلن رأيه في شخصه دون نفاق، قائلاً: "قلو وفقه الله بشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد عصره".

وكعادة الحكام الفرديين، لا يأمن لأي معارضة، فحاول إسكاته بكل السبل، إلا أنه لم يرتدع، فدبر حادثة قتل لأحد أبنائه، فكانت قاصمة الظهر للجبرتي، الذي اعتكف في بيته حزناً مقهوراً على فقد ابنه، وكف بصره في الأيام الأخيرة، إلى أن وافته المنية عام ١٨٢٥م.

مصادر البحث:

- ١- الفكر المصري في القرن ١٨ بين الجحود والتخلف، د. عبد الله العزباوي.
- ٢- الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟ د. ليلى عنان.
- ٣- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر.
- ٤- ودخلت الخيل الأزهر، محمد جلال كشك.
- ٥- شخصية مصر، د. نعمات أحمد فؤاد.
- ٦- كتابة التاريخ في مصر القرن ١٩.. دراسة في التحول الوطني، ترجمة: د. عبد الوهاب مكي.
- ٧- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي.
- ٨- مظاهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين، عبد الرحمن الجبرتي.
- ٩- مقال: محمد علي حاكماً، د. وليم سليمان قلادة، مجلة الطليعة، ١٠ / ١٩٦٩م. ■

الفلاحين، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة".

"وأصبح الناس وتجمعوا أيضاً، وبأيديهم الأسلحة والعصي، ثم إن محمد علي باشا والمشايخ كتبوا مراسلة إلى عمر بك، المعضدين لأحمد باشا المخلوع يذكرون لهما ما اجتمع عليه رأي الجمهور من عزل الباشا، ولا ينبغي مخالفتهم وعنادهم؛ لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم، واستمر أحمد باشا المخلوع ومن معه على الخلاف والعناد وعدم النزول من القلعة".

"وقال القاضي: فإن إقامتكم بالقلعة هو عين الضرر، فإن حضر يوم تاريخه، نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة، وطالبوا بنزولكم أو محاربتكم، فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور".

"واجتهد السيد عمر أفندي النقيب، وحرص الناس على الاجتماع والاستعداد، والكل بالأسلحة والنبابيت، ولازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات، ويسرحون أحزاباً وطوائف ومعهم المشاعل، ويطوفون بالجهات والنواحي، ثم اتفقوا على محاصرة القلعة، فأرسل محمد علي باشا عساكره في جهات الرميطة والطرق النافذة، ومنعوا من يطلع ومن ينزل من القلعة".

وأخيراً، تحقق مراد الشعب المصري بعد مجاهدة، وتم عزل الباشا العثماني، وركبوا إلى محمد علي وقالوا له: أنت صرت حاكم البلد والرعية ليس لها مقارضة في عزل الباشا ونزوله من القلعة، وقد أذاك الأمر فنفذه كيف شئت.

إلا أن الجبرتي قد وقف من محمد علي وحكمه موقف المعارضة، عندما استخدم أساليب المماليك والعثمانيين نفسها، ولكن بطريقة أكثر حزمًا وشدة، قال: إنه قد استغول في تحصيل الأموال بأي وجه، وأن دولته يقوم أساسها على الظلم والحيث بالرعية، فحين نفى محمد علي السيد عمر مكرم، قال الجبرتي: "وأما السيد